العلاقات الثقافية بين تاهرت و مراكز الفكر في المغرب الإسلامي حتى القرن 5هـ/11م

أ. خالد بلعربي
كلية الآداب و العلوم الإنسانية
جامعة سيدي بلعباس

استهدف في هذا البحث أن اوضح العلاقة بين تاهرت و المراكز الفكرية في المغرب الإسلامي مع ذكر بعض العلماء الذين كانت لهم رحلات علمية إلى مراكز الفكر المختلفة حيث شدّوا الرحال و تقربوا عن أوطانهم في سبيل طلب العلم و المعرفة سواء من تاهرت أو إليها فكانوا الصلة القوية بين تاهرت و بين غيرها من مراكز الفكر.

لقد كانت تاهرت "عراق المغرب"[1] الممثلة لحضارة الإسلام بكلّ أبعادها في بلاد المغرب الإسلامي و إحدى معاقل الفكر الإسلامي في القارة الإفريقية، ولم يقتصر تأثيرها على تلك القارة بل امتد إلى جزر البحر المتوسط و أوروبا.

و لعلّ هذا البحث يلقي ضوءا على طبيعة هذه العلاقات حتى تتبين لنا الصورة واضحة جلية بكلّ أبعادها الفكرية.

<u>أولا : العلاقات بين تاهرت و القيروان :</u>

لقد كانت صلة تاهرت بالقيروان وثيقة جدا، حيث كان هناك تأثر و تأثير متبادل بين العاصمتان، لقد حظيت تاهرت منذ تأسيسها[2] بعدد غير قليل من العلماء الذين أتوا إليها و مكثوا فيها للتزود من العلوم و المعارف و التلقي من علمائها و المشاركة في تطوير الحركة الفكرية ، كان منهم أبا عبد الله فضل، وسعيد الحدائي، و حارث العذير الهواري، و أبا الفتاح و غيرهم، و هؤلاء علموا بالفتيا في القيروان و يبدو أنّ نشاط حركتهم امتد إلى تاهرت باعتبارها مركز إمامة المذهب الإباضي[3].

و ممن يمثل الروابط الويقة بين تاهرت و القيروان، الشاعر التاهرتي بكر بن حماد الزناتي المتوفي عام 296هـ/909ن الذي تلقى العلم في القيروان، ثمّ رحل إلى المشرق ليعود إلى القيروان ثانية بعد حياة علمية حافلة امتدت ستة وتسعين عاما مدح خلالها الخلفاء و الأمراء و قال الشعر في مختلف فنونه و قد أخذ عنه أبناء القيروان رواية الحديث و دواوين شعر المعا صرين له الذين اجتمع بهم في رحلته إلى المشرق[4].

ومن بين الأمراء الأغالبة الذين مدحهم بكر بن حماد الأمير الأغلبي إبراهيم الثاني 261–289هـ/874–902م فوصله منه مال وفير ، فنال ذات مرةصرة فيها مائة دينار عن أبيات منها :

خلقن الغواني للرجال بلية ∴ فهن موالينا و نحن عبيدها

إذا ما أردنا الورد في غير حينه ∴ أتتنا به في كلّ حين خدودها[5]

و قد استدعت الظروف بكر بن حماد ليعود إلى تاهرت و يتوفي بها عام 296هـ/909م[6]. و على كلّ فقد مثل بكر بن حماد الترابط الثقافي بين تاهرت والقيروان و أسهم في عملية التأثر و التأثير مما يدل على أنّ الإنتاج الفكري في كل منهما كان يأخذ طريقة إلى الأخرى متخطيا كلّ الظروف.

ثانيا : العلاقات بين تاهرت و فاس :

لقد كانت الصلة العلمية قائمة بين تاهرت و فاس بكل الطرق الممكنة آنذاك و مهما كان الأمر، فإنه بحكم علاقة التجاور بين المدينتين، و العلاقة بين المذهبين الإباضي[7] و الزيدي[8] ، ووجود حرية الجدل في تاهرت، يحتمل وجود اتصال بين أبناء المذهبين و وقوع مناظرات بين العلماء وقد أدى ذلك إلى تقدّم الحركة الفكرية و ازدهارها، و ليس ما يمنع أن يكون هناك بعض العلماء والطلاب من فاس الذين كانت لهم رحلات علمية إلى تاهرت طلبا للعلم والمعرفة، فأخذوا العلم منها بحكم شهرتها و موقعها و ممن قصد تاهرت من أهل مدينة فاس في المغرب الأقصى درّاس بن اسماعيل أبو ميمونة[9] (ت357هـ/967م)، فبعد تتلمذه

على شيوخ بلده اتجه نحو تاهرت فعرف علمائها و أخذ منهم الكثير من المعرفة، و يمكن أن نذكر كذلك أبو عبد الله محمد بن أحمد السوسي وقد ترجم له صاحب كتاب رياض النفوس فذكر أنّ "أصله من السوس ثم انتقل إلى إفريقية فسكن القيروان و استوطنها و صحبه البهلول بن راشد و انتفع به هو وغيره من أهل القيروان"[10] ومن المؤكد أنه عرف تاهرت و أتيحت له فرصة الجلوس إلى علمائها فأفاد و استفاد.

كذلك وفد إلى تاهرت الكثير من طلبة العلم الذين تشرفت بهم هذه المدينة، فكانوا الصلة القوية التي تربط تاهرت بفاس نذكر منهم عبد الله بن حمود بن هلوب بن داود بن سليمان و تذكر ابن بشكوال أنه "طنجي فقيه موضعه و أصله من تاهرت"[11].

و ممّن رحل إلى فاس من أهل تاهرت السفير الثقافي المتجول بكر بن حماد، فكان وجوده فرصة سانحة لأدبائها و علمائها أن يأخذوا عنه، لكن غقامته بها يبدو أنها لن تطل. ذلك لأنّ أمراءها لم يكونوا ممن يدفع الهبات – كما سبق – و بذلك لم يجد الشاعر المكتسب بشعره، ما يستدعيه للبقاء فيها، على أنّ هذا لا يمنع أن يكون هو و من معه قد نقلوا إليها الشيء الكثير[12].

إضافة إلى ما تقدّم، هناك أحمد بن فتح التاهرتي [13] الذي قال قصائد في مدح أبي عيش عيسى بن القاسم و كان مما قاله في مدحه قصيدة منها الأبيات في مدح نساء البصرة :

ما حاز كل الحسن إلا قينة ∴ بصرية في حمرة و بياض
الخمر في لحظاتها و الورد في ∴ و جناتها هيفاء غير مفاض[14].

و ذكر البكري له :

أسلح على كل فاسي مررت به ∴ في العدوتين معها لا تبقى أحدا
قوم غذوا اللوم حتى قال قائلهم ∴ من لا يكون لئيما لم يعش رغدا [15]

و مهما كان الأمر فإن علاقة ثقافية متينة، ربطت بين فاس و تيهرت، بغض النظر عن المذهب السائد، أو الأسرة الحاكمة، و ما كان ذلك ليتم لولا احترام كل منهما لمبدأ السلم و حسن الجوار.

ثالثا : العلاقات بين تاهرت و سجلماسة :

و بجانب العلاقة التي ربطت تاهرت بفاس كانت هناك علاقات ثقافية فكرية بين تاهرت و سلجماسة باعتبارها عاصمة المذهب الصفري في المغرب الأقصى، لقد شكّل الخوارج سواء أكانوا أباضية أو صفرية إحدى الروابط المتينة بين تاهرت و سجلماسة. و قد كان ابن الجمعي أحد العلماء التجار الذين ربطوا سجلماسة بتاهرت برباط ثقافي، ولم يكن ابن الجمعي وحيدا في رحلته فقد كان في رفقته أبو الربيع سليمان بن زرقون، و مخلد بن كيداد و من أهل مدينة سجلماسة الذين تلقوا العلم في تاهرت أبو يحيى حماد بن يحيى السجلماسي الذي أخذ العلم عن بكر بن حماد و بالتالي ليس هناك ما يمنع أن يكون مثله قد فضلوا الإقامة في تاهرت خاصة و هي تحمل شهرة علمية واسعة[16].

كما رحل الطلاب و العلماء من تاهرت إلى سجلماسة للتعلم على أساتذتها و علمائها و التلقي عنهم، فعملوا على مزج الثقافة التاهرتية بالثقافة السجلماسية، و لا يسع المجال هنا لذكر كل هؤلاء العلماء و نكتفي بواحد منهم هو بكر بن حماد الذي يعد خير سفير ثقافي للدولة الرستمية بين بلدان المغرب الإسلامي [17] . و هذا الاتصال الفكري المستمر الذي لم ينقطع فقد ضمن لتاهرت و سجلماسة منذ تأسيسهما الإحاطة بما يجد من فكر في غيرهم من المراكز الفكرية، و لم يجعلهما في عزلة عن غيرهما بل كانوا على صلة بالحركة الثقافي الفكرية آنذاك و كانت الرحلات العلمية المتبادلة بينهما عاملا من عوامل الربط الثقافي و الامتزاج الفكري مع بينهما.

رابعا : العلاقات بين تاهرت و الأندلس :

و إذا كانت تاهرت هي المدينة الإسلامية التي اقامها الرستميون لتكون حصنا صامدا، و منارة مشعة و مركزا أصيلا للحياة الفكرية في بلاد المغرب الإسلامي، فإننا نجد لها دورا كبيرا مهما و بارزا عندما عبر المسلمون إلى الأندلس و كان لزاما للفكر الإسلامي أن يعبر معهم حيث شرع يشع من تاهرت إلى الأندلس و تتابعت الحركة العلمية في نمو مستمر إلى أن ازدهرت بذور الفكر الإسلامي و صارت أشجارا باسقة تتنقل البلابل الصادحة على أغصانها وأفنانها من فرع إلى فرع و من شجرة إلى أخرى أو من مدينة إلى أخرى، وكانت البلابل الشادية بالفكر الإسلامي خلال تلك الفترة تحن إلى الموطن الأصلي تاهرت، فكانت الرحلات العلمية المتتابعة لأبناء الأندلس من شتى أرجائه و بقاعه تفد إلى تاهرت للتزود من علمائها في شتى أنواع العلوم و الفنون.

و ليس من هدفنا أن نستقصي هنا كلّ من شدّ الرحال من الأندلس إلى تاهرت في سبيل متابعة الحياة الفكرية و للتزود من العلم أو من وفد من تاهرت إلى الأندلس لنشر العلم و الفكر فيها و يكفي أن نذكر أن الضبي أحمد بن يحى في كتابه "بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس" قد ذكر مرور عدد من العلماء الأندلسيين على تاهرت للتلقي عن علمائها [18]، و نذكر على سبيل المثال محمد بن عبد الله الغازي، و ابن هرمة، و زياد بن عبد الرحمن اللخمي، و عباس بن ناصح و محمد بن عبد المطماطي، ومحمد بن حيون الحجازي (ت 305هـ/917م) و يوسف بن يحيى أبو عمر من طليطلة فقد جالس هؤلاء لماء المالكية في تاهرت خاصة و أنهم كانوا بحاجة إلى الاستزادة من علم مالك، و من المرجح أن الأندلسيين شكلوا جالية كبيرة في تاهرت، و ما دام الأمر كذلك، فقد نقل هؤلاء بعض ثقافة الأندلس حتى غدت تاهرت ذات طابع أندلسي واضح.

و يحدثنا الزبيدي في كتابه"طبقات النحويين و اللغويين" من كثير من الطلاب و العلماء الذين قدموا من الأندلس إلى تاهرت و تلقوا العلم عن علمائها ومنهم أبو عبد الله الملك عثمان بن المثني القيسي القرطبي، و أبو محمد عبد الله

بن سابق الكلامي الذي كان عالما باللسان مبرزا في الشعر أديبا بليغا. و منهم جابر بن مغيث و كان عالما بالعربية و الشعر و ضروب الآداب و مشهورا بالفضل[20].

و كما كان أهل الأندلس يقدمون إلى تاهرت لطلب العلم كان بعض العلماء من أبناء تاهرت يرحلون إلى الأندلس و يستوطنون فيها حيث يبثون فيها علمهم و معارفهم و من هؤلاء العلماء زكرياء بن بكر بن أحمد الغساني- ابن الأشج- الذي دخل الأندلس مع أبيه و أخيه سنة 326هـ/937م[21]، و الشيخ هود الهواري الذي تلقى علومه في الأنداس، و أبو الفضل أحمد بن قاسم بن عبد الرحم ن التاه رتي البزاز[22]، و كهلان بن أبي لو ابن يصلاصن من قبيلة -مطماطة- الذي نزل على الناصر ، و محمد بن سعيد الرستمي، بل إنّ وجود الرستميين في بلاط الأمير القرطبي هو جزء من الوجود التاهرتي في الأندلس[23].

هكذا يمكن القول أن تاهرت قد اتجهت بعلاقاتها الثقافية نحو الأندلس أيضا، مما يعزز وجود ثقافي بين البلدين سمح لكثيرمن رجال الأندلس أن يدرسوا بها علوم الدين و الآداب و الفلك و غيرها.

وبهذا العرض يتبن لنا الدور المشرق العظيم الذي اضطلعت به مدينة تاهرت في نشر الثقافة الإسلامية و الفكر الإسلامي، ثم حرص أبناؤها و علمائها على تقوية الروابط مع المراكز الفكرية في المغرب، وهكذا كانت تاهرت بحق منارة مشعة للإسلام و فكره و ثقافته في شتى أرجاء العالم الإسلامي يفد الطلاب و العلماء إليها و منها ينطلقون إلى مختلف عواصم المنطقة و بفضل سياسة الحرية و "الباب المفتوح" فقد تعددت حلقات الجدل و المناظرة التي كانوا يعقدونها في العاصمة الرستمية و هذا يدلّ على اهتمام التاهرتيين بالعلم و تطور الحركة العلمية و دورها في نشر العلم في المنطقة.

الهوامش

1- المقديسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط 2، مطبعة بريل ، لندن 1906، ص 228. أنظر أيضا اليعقوبي، تاريخ البلدان، دار الفكر بيروت 1375هـ/1956م، ص 353.

2- ليس هناك تحديدقاطع لتاريخ بناء مدينة تاهرت، فالبعض يرجح بناءهاسنة 144هـ، والبعض الآخر يرى بناءها كان سنة 161هـ/77م، الرقيق القيرواني ، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، تونس 1968،ص 143،ابن خلدون،العبر،ج6،دار الكتاب اللبناني للطباعة و النشر، بيروت 1959،ص 225.

3- الشماخي، كتاب السير، طبع في القاهرة 1301هـ، ص 260-261.

4- ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب تحقيق كولان، ليفي بروفسال، دار الثقافة، بيرووت لبنان ، ص 153-154.

5- ابن الآبار، الحلة السيراء، تحقيق و تعليق حسين مؤنس ج1، القاهرة 1963، الطبعة الأولى ، نشر الشركة الوطنية للطباعة و النشر، ص 174، أنظر كذلك محمد علي مكي، التاهرتي بكر بن حماد، مجلة العربي العدد 53 أبريل 1963، ص 78.

6- جودت عبد الكريم يوسف، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984م،ص 114.

7-ينتسب المذهب الإباضي إلى عبد الله بن اباض و يرتبط ظهوره في بداية النصف الثاني من القرن الأول للهجرة، أنظر : محمود اسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي، دار المعارف ، الإسكندرية، ص 52.

8-و ذلك أن الأدارسة في فاس يرجعون في نسبهم إلى زيد بن علي من آل البيت، بمعنى أنهم علويين، وقالوا في الإمامة أنها لعلي بن ابي طالب ثم للحسن و الحسين دون تمييز، ينالها من توفرت فيه شروط الإمامة منهما ، أنظر زهدي يكن، مذهي الزيدية، مجلة العربي ، العدد 53 أبريل 1963، ص 33.

9- القاضي عياض، ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلم مذهب مالك، تحقيق أحمد بكير محمود ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت، لبنان / ج4، ص 395.

10- المالكي ، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان و إفريقية، تحقيق حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصريةة ، 1951، ص 138.

11- ابن بشكوال،كتاب الصلة،ج1، الدار المصرية للتأليف و النشر القاهرة، 1966،ص 288.

12- جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص 202.

13- نفسه، ص 202.

14-سليمان الباروني، الأزهار الرياضية في أئمة و ملوك الإباضية ج 2، مطبعة الأزهار البارونية، ص 77.

15- البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مطبعة الحكومة الجزائر 1857م، نشر مكتبة المثنى بغداد، ص.117

16- أبو العرب، طبقات علماء إفريقية و تونس، تحقيق علي الشابي و نعيم حسن الباقي، الدار التونسية للنشر 1968م، ص 203.

17- جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص 174.

18-الضبي،بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس،طبع مدينة مدريد،مطبعة روخس إسبانيا 1884،ص 513.

19- ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين 1377هـ/1958م، ص 65، عياض ، المصدر السابق ، ج1، ص 349.

20-الزبيدي،طبقات النحويين واللغويين،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،ط1،1373هـ/1954م،ص.340،275

21- جودت عبد الكريم ، المرجع السابق ص 172.

22- ابن بشكوال، المصدر السابق، ج1، ص 86.

23-جودت عبد الكريم ، المرجع السابق ص 177.